السبت 2008/11/22 Saturday
العرب الأسبوعي

كوميديا مُبكية

رواية «عزازيل» .. مرآة ميدوزا التي رأت فيها وجهها فانصعقت

□ فاطمة ناعوت*

أغرق الجمعُ إما في مهاجمة رواية "عزازيل"، أو في الدفاع عنها. والشاهد أن المهاجمةَ والدفاعَ، كليهما، كانِ رفضا للمضمون أو دفاعًا عنه. أعني غياب الشق الفني الجمالي عن عريضتي الدفاعِ والهجومِ كلتيهما. ففي حين أنكرتِ الكنيسةُ المصرية مضمونَ الرواية متهمة إياها، وإياه (كاتبها د. يوسف زيدان)، بمحاولة النَّيْل من الديانة المسيحية، دافعَ، في حين آخر، البعضُ عن الرواية ذاهبا إلى أنها لم تمس جوهرَ الديانة من قريب أو بعيد، لكنها فضحت بعض السلبيات الفردية التي يرتكبها آحادُ الناس، دائما وأبدا، من كل ملة وفي كل عصر. وضاعت الرواية كعمل أدبي وتشتت دمُها، "الإبداعيّ"، بين القبائل، المضمونية، حين عوملت وكأنها بحث أو دراسةٌ يحقّ عليها ما يحقّ على الفكر من مناوءة وسجال ومصادرة أيضا (بما أننا في عصر المصادرات(!).

"انهزامُ الإنسان" هو التيمة الرئيس لهذا العمل الأدبي الجميل، وهي التيمة التي عنت لي الكثير في الرواية في حقيقة الأمر. انهزامه، ليس وحسب أمام رُحى الواقع القاسي، وليس وحسب أمام جبروت "الآخر" ذي الجهالة، أو ذي السلطة، وإنما، وهو الأمَرُّ والأخطرُ، انهزامُه أمام نفسه. كأنما الرواية هي مرآة ميدوزا التي أداروا صفحتها قبالتها فصفعها قبحُها وهالها كمُّ دمامتها وفقر روحها فانصعقتْ، وماتت. أو كأنما هي المرآة التي وجهتها فيرجينيا وولف في روايتها الأخيرة "بين فصول العرض" للنظارة الإنجليز ليروا قبحَهم وانبطاحَهم أمام الموروث القديم بكل طاغوته وسلفيته العمياء، فلما رأوا وجوههم وقد لطخها السوادُ والعتمة، أُسقط في يدهم، وانتبهوا. إنكارُ الإنسانِ أمثولات وهدايا يهبها اللهُ له عبر حياته القصيرة فوق الأرض، هي محنةُ الإنسان الكبرى وسرُّ شقائه الأبدي. الراهبُ المصريّ هيبا، أنكرَ العالمةَ الفيلسوفة الإغريقية الجميلة، عقلا وروحاَ، هيباتيا أمام قاتليها الفاشين، ولم يمد لها يدَ الغوث، خوفا على نفسه، وخجلا من افتضاح أمر إعجابه بعلمها، هي الوثنية، هو المسيحي. كما كان قد أنكر من قبل نفسَه أمام الوثنية الفاتنة أوكتافيا، التي أحبته بجد. أخفى عنها ديانته ومكانته الكنسية، لا حبًّا في المرأة وخوفا على مشاعرها الثائرة ضد المسيحيين لعنفهم ضد الوثنيين، فهو من أسف لم يتعلم بعد أن يحب، بل خوفا من فقدها وخسارة الدفء الذي منحته إياه أياما. وكان من قبل القبل قد أنكر نفسه "فيزيقيا" حينما خرج الراديكاليون المسيحيون ليقتلوا أباه، الوثنيّ، على مرأى منه ومسمع فاختبئ في زاوية قصية كيلا يُقتل. ثم ها هو سيخذل أستاذه وعرّابه الأسقف نسطور حينما طلب إليه السفرَ للإسكندرية لمخاطبة الأسقف كرُلّوس بشأن رسائله العدائية لنسطور، خاف هَيبا على حياته من وحشية السكندريين التي شهدها بعينيه، وفي الأخير سينكر الحبَّ الوحيد الذي صادفه وخفق له قلبه. "مرتا" التي جمالها الملائكي لا شيءٍ يشبهه. هو مارس إذا كلَّ ألوان النكران، على مدى سني عمره. نكرانُ الذات معنويا: الهوية والعقيدة، أمام أوكتافيا، طمعا في الرغد والدفء، ونكران الذات جسديا حينما اختبأ ساعة مقتل أبيه، طمعا في المزيد من الحياة وهربا من الموت المبكر، ثم نكران "الآخر"، على إطلاقه، هيباتا ونسطور، حين لم يهم لمساعدته وقت النوازل. ثم التنكّر "للقلب" حينما وأد مشاعره وضحي بحبه مرتا، الذي لا يأتي سوى مرّة. هذه هي محنة الإنسان حينما يصطدم بمبادئه، وحينما يتعين عليه مواجهتها. محنته أمام خياراته. أيختار الشقاءَ، أم يركن إلى السلام؟ والبحثُ عن الحقيقة هو دائما صنوٌ للشقاء. السلامُ الجسديّ أم السلامُ الروحي؟ تلك هي المسألة. على أن اللهَ قد أعطانا نماذجَ فارقة وضعها على محك الاختبار كي تكونَ عظةً لنا وقدوةً نقتديها، أو نُنكرها، إن شئنا. نماذجُ من رسله كان خيارُها الشقاءَ "الجسديّ"، من أجل السلام "الروحيّ". المسيح عليه السلام هو الأعظمُ نموذجا حالَ الكلام عن هذا الخيار الرفيع الصعب. وفي البشر العاديين كذلك لنا نماذجُ فريدةٌ مرّت بتجاربَ روحية وسياسية ومبدئية كبرى كان من تجليّاتها عذاباتٌ جسديةٌ مريرةٌ على مدار التاريخ الإنساني. مثل غاندي وجان دارك وجيفارا ومارتن لوثر كينج وعمر المختار وعبد القادر الجزائري والأم تريزا وفلورانس نايتنجيل ومحمد كُريّم وسواهم. أما الخيار الثاني، أولئك الذين ينشدون السلامَ الجسديَّ ضاربين صفحا عن السلام الروحي، فالغالبية العظمي، من أسف، من البشر نموذج له.

وعلى عكس كل ما سبق من نكرانات متوالية، سيعترف هيبا بعزازيل ولن ينكره. يستدعيه ليحاوره، وينتظره ويفتقده إذا غاب عنه ويسأله في أمور الدين والدنيا، وينصاع لأمره بتدوين اعترافاته على ثلاثين رقًّا جلديا. لكنه، في الأخير، سيفيق وينهره فينحدر الشيطانُ كسيفا مهزوما ويختفي. تماما كما فعل فاوست مع مفستوفيليس. هزمَ هيبا الشيطانَ عند الرق الثلاثين. وعند نهاية الرق الواحد والثلاثين كان قد تحرر من موروثه ومن أوهامه التي قضّتْ نومَه وأثقلتْ كاهلَه فصار خفيفا: "ليرحل مع شروق الشمس، حرًّا". هي مرثيةٌ مطولة، وحائطُ مبكى، أو بالأحرى ستارُ اعتراف للإنسانية كلها. كلٌّ منا، نحن بني البشر الخطّائين، به شقٌّ من "هيبا" على نحو أو آخر. كلُّ إنسان، منذ الأزل وحتى الأبد، يحمل بقعة رمادية غائمةً في روحه. ذوو البأس وحدهم يقبضون على هذه البقعة ثم يُعملون فيها مباضعَهم ومشارطهم الجراحية، من تثقيف للعقل وتهذيب للروح وترقية للنفس وتكريسٍ للمبادئ، عملا على تنقيتها. ذاك هو الاشتغالُ على النفس. وهو أصعبُ وأقسى ألوان الاشتغالات، وأرقاها وأرفعها في آن. وتلك هي رسالةُ رواية "عزازيل" التي كُتبت، والحقَّ يُقال، عبر لغة رائقة رصينة نقية من اللحن والعوج.

الروايةَ تقول إن الربَّ، كائنا من كان، ليس محلّه الهيكل، أو الكنيسة، أو المسجد، لكن الربَّ كامنٌ فينا. ربما عكس ما قال جبران: "لا تقلْ اللهُ في قلبي، بل قلْ أنا في قلب الله". والمعنيان صحيحان حينما ينصهر الدالُ والمدلول والدلالةُ في واحد صحيح. اللهُ كامنٌ في أرواحنا وقلوبنا وعقولنا. وهو دائما عند اختيارنا نحن. نختارُ أن نؤمنَ به فيخلّصنا، أو نختارُ أن نكفرَ فيتركنا للضياع. يتركنا للشيطان عزازيل، الذي هو أيضا كامنٌ فينا. نستدعيه وقتما نشاء. وننهره حينما نرغب عنه فيندحر ويتلاشى. تماما مثلما في الأخير غضب هيبا من عزازيل حين تطاول على الأب رئيس الكنيسة، ولما زعق فيه هيبا ونهره، اختفي عزازيل على الفور. عزازيل إذن قرارٌ وإرادة من داخلنا نحن البشر. مثلما الفضيلة والرقيُّ الروحيُّ أيضا قرار واختيار.

بيتُ قصيد هذه الرواية هو هذه الجملة الفذّة التي وردت في الرق الثامن والعشرين على لسان هيبا فيما يحاكم ذاته: "لم أرَ أيَّ شيء من داخله، أنا أطوِّفُ دوما بظاهر الأشياء ولا أغوصُ فيها، بل أراني أخشى الغوصَ في باطني، لكي أعرف حقيقة ذاتي الملتبسة... كل ما فيّ ملتبسٌ... عمادي، رهبانيتي، إيماني، أشعاري، معارفي الطيبة، محبتي لمرتا... أنا التباسٌ في التباس! والالتباسُ نقيضُ الإيمان، مثلما إبليسُ نقيضُ الله". وفي موضع آخر بالرقِ التاسع والعشرين: "إن الله محتجبٌ في ذواتنا، والإنسانُ عاجزٌ عن الغوص لإدراكه!". ثم يقول إبليس أو عزازيل: "أنا يا هيبا أنتَ، وأنا هُمْ، تراني حاضرا حيثما أردتَ، أو أرادوا." وفي موضع آخر في نهاية الرواية حينما أراد هيبا إنهاء حياته فرارا من حَزَنه وإخفاقه، يحاججه عزازيل ليثنيه عن قراره قائلا: "هل جُننت! الموتُ لا معنى له. المعاني كلُّها في الحياة، أنا حيٌّ دوما ولن أموتَ إلا بموتك وموت المؤمنين بي، المكتشفين وجودي فيهم، وليس من حقك أنِ تُميتني بموتك قبل الأوان." هيبا، الذي اشتق لنفسه اسما من المقطع الأول من اسم "هيباتيا" الهلينية، أستاذة الأزمان ورئيسة المدرسة الأفلاطونية بالإسكندرية، كلون من التكفير عن جرمه في حقها، كأنما هو ديوجين الإغريقي الباحثُ عن الحقيقة بمصباح في وهج الشمس. يجوب البقاع والأمصار مشيا وسباحة وركضا وهْنا على وهْن لكي يرى وجه الله الحقيقي، ليس اللهُ الذي في فم القساوسة، يرسمونه كلٌّ على هواه عبر مكوّنه المعرفي والفلسفي، وليس اللهُ كما في الكتب مهما تقدست، إذ ستظل الكلمةُ حمّالةَ أوجه قابلةً للتأويل المختلف من فرد إلى فرد ومنً عصر إلى عصر، بل اللهُ ذاته. اللهُ الذي هناك ينتظرُ عبدا في أقصى الأرضِ لم تصله رسالةٌ ولم ير رسلا، يفكر لحظةً فيه ويبحث عنه فينكشف له اللهُ في خلوته. هذا الشك الذي امتلأ به قلبُ هيبا، هو الإرهاصةُ الأولى، والكبرى، للإيمان الحق. الإيمان العقليّ لا النقليّ. الإيمان الذي لم يأت من طريق وراثة الدين مثلما كلنا ورثنا عقائدَ آبائنا دون كثير أو قليلِ فضل أو مباهاة، ثم انقلبنا نقاتل ونَقتل ونَقتتل دفاعا عن هذا الذي ورثناه ولم نختره. فتحول الدينُ، الذي عمادُه المحبةُ والجمالُ والسلامُ والإعمار، إلى بَحارِ دم ومتارسَ وسيوف وكراهية ومصالحَ وقبحَ وعنف ودمار ورؤوس تتهاوى من فوق أعناقها! أيّةُ كوميديًا مُبكية!

* ناقدة وشاعرة من مصر

«صور قديمة» .. ومضة في العتمة

□ هشام الصباحي*

يعتمد حسن الحلوجى في مجموعته القصصية "صور قديمة" الصادرة في القاهرة عام2007 عن دار توشكي للنشر والإعلان وضمن إصدارات جماعة تكعيبة الأدبية من اللحظة الأولى على إحداث المفارقة في مشاهد قصصية قصيرة جدا تشبه الومضة التي تخطفك وتأسرك داخلها ثم تلفظك خارجها بعد إحداث تغير ما في رؤيتك وإحساسك يجعلك تتعرف على ماهية الأشياء وتتكشفها من جديد وتتعرف على العلاقات الجديدة بينها، كان ذلك واضحا تماما في مجموعة القصص القصيرة التي تصدرت بداية المجموعة تحت عنوان موحد هو مشاهد .

يمتلك الحلوجى -كما توحي مجموعته القصصية الأولى - قدرة جيدة على تقديم تفاصيل مشهديه لاتُرى بالعين المجردة ولكنها تُكتشف بالعين المدربة والخبيرة في اكتشاف التفاصيل المختبأه مثل عين قاص مدربة على هذا، ويظهر ذلك في قصة حداثة (ص 16) وقصة ولادة (ص 21) ولابد من الاهتمام بهذه الحاسة في المستقبل لدى القاص فهي واحدة من مصادر القوة التي تساعده بقدر كبير في إنشاء نصه القصصي.

كانت السمة العامة للعناوين أنها مكونة من كلمة واحد إلا فيما عدا القصة التي أخذت اسم المجموعة القصصية وهى صور قديمة وهذا يوحى بوضوح العالم لدى القاص وقدرته على الاختزال والاختصار حيث يظهر هذا جليا في حجم المجموعة الذي يصل إلى 55 صفحة فقط .

لقد شكل العنوان في صياغته اللغوية وسمته التشكيلة قصدية الاعتماد على مرحلة الطفولة وخاصة في استخدام الفوتوغرافيا لصور أطفال وباللون الأبيض والأسود للصور داخل لون بني يشكل فضاء غلاف الكتاب، وقد أجزم أنه لابد من وجود صورة للقاص وهو صغير ضمن صور الغلاف.

دائما يعطى حسن الحلوجى بُعْدين لقصصه، الأول بُعْد ظاهري والآخر بُعْد باطني، ففي قصة حداثة التي من عنوانها لها إحالات مختلفة وذات ارتباطات معروفة في مخيلتنا، إلا أنها تتكلم عن علاقة أرفف محل بقالة مع الزمن ورصد التغيرات الحادثة في هذه الأرفف وكيف كانت تحفه فنية والآن هي مجرد مسطحات بها العديد من القاذورات التي تتكون كما يقول في (ص 19) من بقع الزيت العتيقة، وحبات السكر الأثرية، وبقايا حفريات الحلوى التي توقفت المصانع عن إنتاجها" كما يتحدث على علاقتها بالكل المحيط حيث يقول في ص17"لم يكن التراب يزعجها لما نشأ بينها وبينه من ألفة كالمخدر" وفي موْضع آخر يرصد علاقتها بالعنكبوت حيث يقول "كان الضيف المزعج حقا هو العنكبوت البني الذي كان يزورها بين الحين والآخر"، ومع كل هذه التفاصيل التي تعتبر في حد ذاتها كافية وتمثل البعد الأول، إلا أنه يعطينا القاص الذي يمسك مفاتيح تعدد الصراعات في القصة بمأزق جديد للبقال القديم عند افتتاح بقالة جديدة تأخذ من الأسماء الجديد والأجنبية اسما لها والأصناف الجديد والوافدة على القرية، لتُحدث البُعد الثاني في القصة، ويظهر هذا بقوة في قصة عزاء (ص 29) حيث المشهديه الوصفية عالية جدا وعلى الرغم من أن الحدث الظاهر هو موت أحد أصدقاء البطل إلا أن الحدث الباطن هو إحساس البطل بالغربة التامة بعد عودته إلى قريته ليحضر عزاء صاحبه وكأنها خطوط متوازية حيث موت الصديق يساوي غربة البطل التي دفعته في نهاية القصة إلى الارتماء في أحضان والد صديقه الميت والبكاء ولابد أن يكون البكاء في شكله الظاهري على الميت ولكن مع بعض الإمعان تجد نفسك مدفوعا إلى إقرار أن البكاء في الأصل هو بكاء البطل على نفسه التي تشعر بالغربة الشديدة في وسط الأهل. لقد كان الشكر والإهداء الذي زين الغلاف الأخير للكتاب والمقدم من حسن الحلوجى إلى دكتورة لطيفة عاشور التي قامت بالإنفاق على الكتاب من أجل أن يخرج إلى العالم لمسة وفاء من القاص ونقطة نور من لطيفة عاشور في واقع مظلم.

*شاعر وكاتب من مصر

ورقتان للشعر والذاكرة

□ أحمد عمراني*

1- الورقة الأولى:رفقة الشعر في ينابيعه وامتداداته

إن الشعر، غالبا ما يتولد نتيجة التلاقح بالمعاناة، معاناة الإنسان في شرنقة الإبداع المهووس بنبض الحياة، حيث يتحمل الإنسان المبدع زخم معاناته المستمرة .

إن الشعر في ذلك، يتيه، يعنف، يشق الصخر، ويكابد الصعاب، كمن يصارع أمواج البحر العنيدة، وفي كل ذلك، يفجر كينونته ويجعلها تتألق في بهاء الكلمة، وانغماس في الطين، أو رحيل في التيه والسفر والطواف والإعصار والبوح والعنفوان والصراخ والأمل والحلم!

الشعر في هذا كله، يتشظى، يحفر، يعمق الجرح ويصهل في أبهة البكاء، هو لا يبكي، ولكنه يصنع من الدموع ثرى يخصب وتينع زهراته، لا للتغني الضامر السخيف، ولكن ليكشف امتداد الكلمات الحرى من الجذور حتى السحاب، عبر الفيضانات والأنهار واللحظات الآبقة، في تناسل يعلن سرا لا يكبته، ويفجر ينبوعا يتصاعد منه الدخان، كأنه يحترق من داخل الرماد ممددا فروعه في شقوق الأرض المخضبة بالطين، كالعروق في مساحة الوطن والعالم. في الشعر، ثمة امتداد في الفضاء، وانصهار للذات في الموضوع، ثمة كلمة مرصعة، وأخرى تتجدد من مساحة إلى أخرى، ثمة لبنة معادة، ثمة مقاطع ترسم وتتطلع بإصرار إلى الانطلاق، وثمة قصائد تفجر الداخل وتحيط مكامن الروح في المرآة، فيجسنا نبض خلود ما، وشعورنا يندفع في محفل القصائد، نتصنت أصواتا وصدى وموسيقى وصورا تتوزع منها إلينا، فنرتعش ونحضن المدى المفتوح لحالات الاعتداد، والإشراق، مما يجعلنا لا نملك إلا الانغماس والغوص وإعادة السفر في محافل الشعر. إن القول الشعري، هو الذي يجعل الإنسان يحتمل أكثر، لا يخنع أو يخضع أو يتوانى، ولا يتعالى أو ينكمش، بل يندفع أقوى حتى يكون الإصغاء محترسا من الصوت الذي يصدع ويعرق حين يسير في اندفاعه نحو الأمكنة المختلفة والأعالي البعيدة، في عمق الإنسان المتفاعل في الحرب والبحر والحبر. وقد تكتسي اللغة في الشعر بعدا آخر، وتركيبا بنائيا جماليا أو مخالفا ومغايرا للتركيب المشاع السائد أو المفترض، حيث تصير الذاكرة الجمعية أقنوما وصوتا عند القراءة يرتفع كي تتوحد هذه الفكرة أو تلك الومضة، بعنف تيهنا وسرمديتنا المتخيلة، وكي تكون رفقة الشعر، توغلا في ذات الإنسان للتطهر والاشتعال والحياة المتجددة. ورفقة الشعر في ينابيعه وامتداداته، إبحار، والمبحر في المجهول قد يعود أولا يعود، ولكنه يقول وينبض ويهتف ويصيح حتى تصير الحياة منافذ وأضواء في كل العصور والأزمان.

2- الورقة الثانية:في خضم الكتابة الشعرية

الوطن نبع للقصيدة في تفاصيله القاحلة أو المورقة، دفق أغنية مهووسة بإيقاعات الحب والجمال والحرية!

أراه في عين امرأة مكلومة، في خرير المياه وعلى قمم الجبال وألسنة الأطفال ينشدون الأمل والحياة! والحلم نغم في الشعر يصدح خارج علاقات الإستغلال والعنف والتضليل، ولا سؤال إلا في السطوع والبيان، ومن يصادر مناراته يغوص في المستنقع الآسن ويضيع في دوامة البحث عن السراب خلف المتاهات.. وفي هذا الخضم،عشق الوطن مبثوث بين الضلوع وفي الأزقة وحوار الممرات والمسافات يتوق للأنقى والأسمى، يسافر عبر التجاعيد الكانفة للأسر والفقر ويبقى... يبقى ليردد مقاطع الشعراء المغتالين وهم يكتبون عن الإنسان ويرسمون بالبصمات المتوهجة على الكف والعينين والشفتين، فأراني في لجة الشعرأعتلي الصخرة العالية لأنشد قصيدة الروح تشرخ مساحة القلب والذاكرة وأنتظر الأفق المغموس في الحناء وماء الورد والزهر، والشوق للعوالم الفضلى!

كل المواويل نبضات تشدني إلى الينابيع ولا أرتوي فأفسح مجالا آخر للحرية وما تبقى من سمفونيتها الطويلة المعشوقة التي لا تفتر أو تخبو وتزول ! وها زهور الضحى تتفتق في المكامن والحقول، فأحتمي بظلال الحلم العالية وأغني مع الطيور قصيدة العودة كي أستفيق على إيقاع الأحذية وطرقات الصهريج؟ حبا للشمس الفواحة بعبق الموج حاورت كلمات الفرح بالصهيل والمنفلت والمؤجل، وشعرا كتبت ألق الصوت الحارق والأفق الهارب في سفن الغياب! فيا وطن الشموع المضيئة في بحر العواصف لا تسحبني سهوا من كتابك المنشود، فدوما سوف ألقاك مصبحا عليك!

* كاتب من المغرب